في حفل احياء ذكرى التشكيلي اسماعيل شموط

درويش: نحن شظايا قصائد أعاد الفنان تشكيلها وتجميعها في اطار

عمّان ـ «القدس العربي»

ـ من نوال العلي:

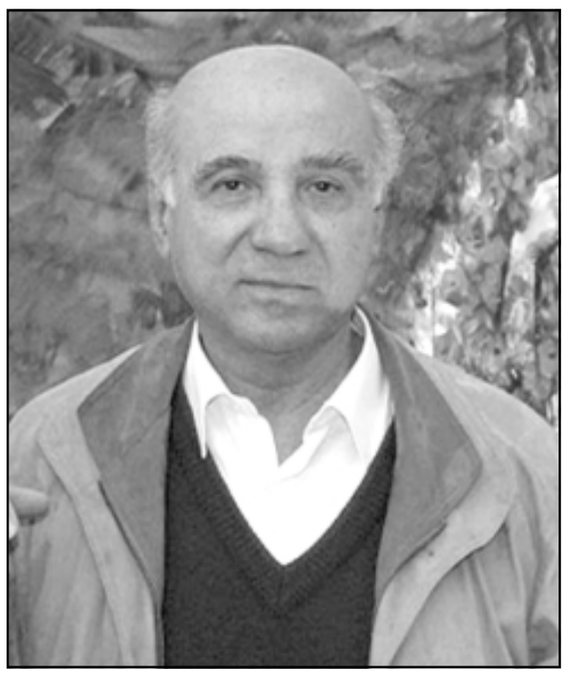

مصغياً لأزيز الرصاص البعيد أحياناً، ومفتونا بالموسيقى والشعر وزوجي الكناري العاشقين أحياناً أخرى استعاد الشاعر الفلسطيني محمود درويش في حفل احياء ذكرى الفنان التشكيلي الفلسطيني اسماعيل شموط الذي أقيم في المركز الثقافي الملكي أول من أمس ذكرياته في بيت شموط وصورة الماضي الذي صاغته صداقة جمعت بين المبدعين، وكأنهما «بلغاريان منفيان» يتبادل درويش وشموط كلما التقيا فعل التذكر والحنين لمدينة صوفيا، حيث تآخيا كجناحي طائر منذ أربعين عاماً، درويش القادم من أرض ذاكرته، وشموط القادم من مستقبل منفى الشاعر.

لم يكن درويش يقلب في صور الماضي بل كان يثير تساؤلات انسانية وأخرى فلسطينية موجعة، أسئلة صاغت روح الاثنين معا، «هل قدر للجماليات أن تبقى أسيرة التراجيديات؟». و«هل حكم علينا أن ننشغل الى ما لانهاية بتقديم البراهين على أننا نحن نحن، وعلى أننا كائنات بشرية لا أشباح، وأن لنا بلاداً هي أرض لا بطاقة بريدية؟». ويزيد درويش من وطأة الحيرة بقوله «الى متى يظل الوطن في حاجة لبراهين جمالية، والى متى يظل الفن في حاجة الى براهين وطنية؟».

يقف درويش أمام فن شموط ويرى انساناً كرس طاقاته الفنية وحياته كلها ليؤرخ للتراجيديا الفلسطينية المستمرة، فصار «أيقونة فنية وطنية. صار الرسام هو اللوحة». ومن يمكنه نسيان شموط الذي لا يأذن لأحد بنسيانه، وهو الذي واظب على الصداقة مواظبته على العمل كما يصفه درويش، مستذكراً تفقده لأصحابه في كل مناسبة من دون أن يرحم «قلبه المفتوح كحديقة عامة من أعباء الحب».

كان شموط صديق درويش الى حد لم يسأله لماذا لا يعلق له لوحة على جدار، والى حد لم يسأله درويش لماذا لم ير له كتاباً في بيته. وافترق الصديقان من دون أن يقول أحدهما للآخر أيضاً أين ذهب الموضوع بالذات وأين جنحت الاستعارة بالموضوع.

الفنانة التشكيلية تمام الأكحل زوجة شموط منذ عام 1959 والتي حارت ماذا تقول بعد أربعة أشهر من الفقدان عن اسماعيل الحبيب، الزوج، الأب والجد عن بيتهما الذي سمي «بيت الشعب» وكيف صنع الاثنان الجمال من قسوة الحياة. واستغرقت في تداعيات حميمة كأنها تعيشها للمرة الأولى.

تقول الأكحل «دعاني للغداء وكلمني عن حلمه الأكبر قائلا: (يد واحدة لا تصفق، ولا طير يطير بجناح واحد) ولما أجهده الخجل اختفت كلمات الحب عن لسانه مع أن عينيه كانتا تنطقان به، وعند لحظة الوداع سلمني رسالة تعلن عن حب في قلبه قد أورق».

لا زالت الأكحل منهمكة بيوميات الحبيب الراحل، لا زالت تفكر بتفاصيله الدقيقة: متى ينام؟ وماذا يأكل؟ «فاسماعيل لا يحب المعجنات»، و«أغراضه مرتبة ومكتبته دقيقة التنظيم»، «ولا ينام الا بحبوب منومة».

وعندما يشعر بأن لدى تمام رغبة في الرسم، يأخذ دور الأم والأب معا، و يقدمها عن نفسه أحيانا، فخورا بها كزوجة وأم وفنانة ورفيقة درب وعمر، «ولم يكن أبا لابنائه فقط وانما كان أيضا أبا حنونا معطاء لكل الفنانين».

من لوحاتهما صنعا وطناً «يعيش فيه المتلقي في الاغتراب»، وجاهدا «لتجميل الحياة، لأن فيها ما يستحق العيش من أجله»، وتختتم الأكحل حديثها الى شموط قائلة «يا حبيبي يا اسماعيل حملت وطنك بين أضلعك فعاش معك أينما حللت في المنافي»، وطلبت يا اسماعيل من الجراح الألماني: «اذا كانت هناك خطورة يا دكتور اتركني لأرجع وأكمل لوحتين نفسي أعملهما من أجل وطني وشعبي، فأنا فلسطيني».

سفيرة الأردن في روما الأميرة وجدان علي شاركت في هذه الذكرى عبر كلمة بعنوان «الفنان الفارس» ألقاها نيابة عنها مدير المتحف الوطني للفنون الجميلة د. خالد خريس. وصفت فيها شموط بأنه الفارس الذي يختلف عن المحارب بأنه لا يترجل عن جواده أبداً. فلا زالت ريشته تنتظر ولوحته الأخيرة لم تنته وهو يسأل طبيبه متى يستطيع العودة ليتمها، وترى علي أن شموط استغل موهبته ليذود بها عن حقه المغتصب وأن العمل الفني لا يقتل ولا يسيل دماً ولا يخلف ضحية بل يغذي العقل ويبدل صورة نمطية رسمتها الأذهان المعادية، وتعد علي أعمال شموط توثيقاً لحكاية شعب سلبت حقوقه ولكنه ظل «متمسكاً بانسانيته ليكشف بهدوئه وفنه كذبة أرض بلا شعب وشعب بلا قضية».

محمود درويش في حفل تكريم اسماعيل شموط

اسماعيل شموط

عضو المجلس الفلسطيني الأسبق الكاتب شفيق الحوت كان له دوره أيضاً، فهو رفيق شموط الذي يعرف تفاصيل طفولته ومعاناته، يقول الحوت «كانت بداية مشواره من قاع الدنيا، بدأ اسماعيل الفتى اولى خطوات حياته بهموم الرجل المسؤول عن عائلة، فباع الكعك مقابل كعكة يأكلها، وباع حلوى الصغار من دون أن يجرؤ على تذوق شيء منها، كان يلف طول النهار بين المشردين من امثاله يبيعهم ما يحمل فوق رأسه، وكانوا يردون له الثمن مشاهد من المأساة تنطبع في خياله ألوانا غاضبة. ووجوها تصرخ وعيونا تدمع بالدم. تحولت فيما بعد الى شهادات وثائقية عرفناها بأسمائها الحقيقية، مثل «جرعة ماء»، و«الى اين» و«ذكريات ونار» و«هنا كان ابي» وغيرها».

ويضيف الحوت «ستنسى الأجيال القادمة اسماء رجال كثر من تاريخنا الفلسطيني الحديث، لكن اسم اسماعيل شموط سيبقى خالدا في ذاكرة الأجيال كلما وقعت أعينهم على لوحة من لوحاته التي كان يحملها كالصلبان فوق كتفه».

وكان أمين عام زارة الثقافة الشاعر جريس سماوي استهل الحفل الذي أقامته مؤسسة التعاون ومؤسسة عبد المحسن قطان مستعرضاً مسيرة شموط الذي «فتح عينيه على المكان الفلسطيني قبل خرابه فتشكلت لديه الرؤية الأولى حتى نكبة عام 1948 حين هاجر وأطل على رؤى بصرية أخرى اختزنتها ذاكرته لرحلة الانسان الفلسطيني».

بدأ الفنان مسيرته يرسم ما التقطته ذاكرته من نظرات «الحيرة والتيه لجمع البشر وملامح الغضب والعناد الفلسطيني المقدس ورفع الهامة عالياً بحجم فلسطين».

انتخب في عام 1969 كأول أمين عام لاتحاد الفنانين التشكيليين الفلسطينيين كما أصبح أول أمين عام لاتحاد الفنانين التشكيليين العرب في عام 1971، أقام الفنان الراحل العديد من المعارض الفنية فى شتى أنحاء العالم وله العديد من المؤلفات والكتب وله فيلمان وثائقيان وأسطوانتان موسيقيتان وحصل على العديد من الأوسمة والدروع.

كما أعلن مدير مؤسسة القطان عبد المحسن القطان عن جائزة للمبدعين سوف تخصصها المؤسسة باسم الفنان اسماعيل شموط، وذلك في كلمة تناول فيها علاقة شموط بالمؤسسة في سبيل العمل للمحافظة على التراث الفلسطيني الذي راهن الاحتلال على أنه سيتلاشى مع هذا العدد القليل من الشعب.

ومن مريدي الصالون الموسيقي الذي أقامه شموط في منزله د. أيمن تيسير الذي قدم مقطوعة موسيقية مع مجموعة من العازفين من قالب «السماعي» الذي عشقه شموط الحريص على دعوة الأصدقاء لتذوق الموسيقى العربية. وفي ختام الحفل قدم د.حاتم الشريف بانوراما بعنوان «ذاكرة بصرية» بدأها بعبارة «ذهبت الى حيث يذهب الجميع، وبقيت حيث يبقى الخالدون». واستعرض الشريف في البانوراما أهم أعمال الفنان الراحل متناولاً تطور مسيرته الفنية وتدرج مراحلها.

يده هي التي ترى وقلبه هو الذي يرسم

محمود درويش

■ اذا كانت حياة الفنان المستمرة هي أعماله التي تجدد حياتها بمنأى عنه، فنحن اليوم، وغدا لا نودع اسماعيل شموط.. بل نستقبله عائدا من معركتين منتصرا:

الأولى ـ صراع الفن مع الموت القادر على اتقان مهنته الأبدية، والعاجز في الوقت ذاته عن تعريف الخلود الذي لا شأن له به، فالخلود هو صناعة الفنان، آثاره التي نحدق اليها منبهرين بتحول المخلوق الى خالق.

والثانية ـ هي صراع الفن مع وحشية التاريخ الذي اقتلع بجرافته العملاقة شعبا من جغرافيته، وألقى بفتى يافع الى البرية، محمّلا بسؤال ما زال يطاردنا: الى اين؟

هل كان الفتى يعلم أن بوسع ريشته الطرية أن تعيد بناء ما انكسر من المكان والزمان؟ الموهبة تسبق وعي المهمة، ومن التجربة ولدت هذه الموهبة التي أدركت في ما بعد أن عليها أن تخوض حرب الذاكرة ضد النسيان، وانتصر الفنان على ما أعد له ولشعبه من مشروع خروج من التاريخ الى التيه والنسيان.

نحن هنا، اذن، للاحتفال بقدرة الروح الابداعية على الاختراق، وعلى تعميم الرجاء والعزاء لموتى لم يموتوا، ولأحياء لم يضيقوا ذرعا بحياتهم، نحن هنا لتحية اسماعيل شموط، لا لأنه كان رائد الفن التشكيلي الفلسطيني، كما درجنا على هذا القول السهل الذي لا معنى، فنيا، له، ولا لأنه أقام أول معرض للرسم الفلسطيني، ولا لأنه كان رئيس اتحاد التشكيليين العرب، فتلك أوسمة تليق بجنرال متقاعد، لا بفنان أمضى أكثر من نصف قرن في البحث عن هوية فنية متداخلة مع هوية شعب حرم من التأمل الحر في ذاته الانسانية خارج ما أُعد له من مصائر.

اسماعيل فينا سيرة ومسيرة، ذات ذابت في الموضوع، وأقامت الموضوع في الذات. ومن فرط ما هو هو وليس هو في آن واحد، خُيّل الينا نحن المثبتين في زيت اللوحة، أننا شظايا قصائد أعاد الفنان تشكيلها وتجميعها في اطار.

لا يحتاج الفلسطيني كثيرا الى صرامة النظرية ليتساءل عن علاقة الشخصي بالعام، وعن تحديد مفهوم الالتزام، فهو يولد متورطا بالسليقة.

في كل سيرة شخصية سيرة عامة. وفي كل فرد جماعة، يكفي أن يتذكر اسماعيل طفولته في اللد ليرسم جمال الطبيعة، وهجرته ليرسم أحزان النكبة، وصباه بائعا متجولا للحلوى ليرسم الشجن، وتل الزعتر ليرسم المأساة والبطولة، وحصار بيروت ليرسم الصمود والغضب، وصبرا وشاتيلا ليرسم الضمير الانساني طعاما للكلاب الضالة، والانتفاضة ليرسم الأمل، ويكفي أن يتذكر الغد ليرسم المرآة.

في الذاكرة فردوس مفقود، وفي الواقع، لا مكان للفرح الصغير الا اذا مر يوم واحد بلا مجزرة. عندها يرتاح اللون الأحمر من الصراخ ليتقدم أصفر الاقحوان بحياء الى اللوحة. كأن اسماعيل لص نبيل يتربص بفرح قليل.. فيه من جمال السراب وعده بالعطش.

ولهذا تطل من سكتشاته الشفافة امرأة عارية كطيف سريع الاختفاء، لا خوفا من تمام، بل خوفا من مشاهدين ظن اسماعيل انهم لن يغفروا للفلسطيني المنمط اختلاس النظر الى رخام أنثوي فاتن.

هنا، ينقضّ علينا السؤال: هل قدّر للجماليات أن تبقى أسيرة التراجيديات، ليس هذا قلقي وحدي، بل قلق اسماعيل الذي رسم لنا صورنا المتحولة، فرسمنا له صورته الثابتة كم حاول أن يتمرد علينا وعلى نفسه، وأبقى تمرده سرا للقلق. وحاول أن يغير ويتغير فعدّد أشكاله وألوانه وغيّرها داخل الثابت المتوقع، لا هنا الا هناك، لم يسع الى تحرير الذات المبدعة من موضوعها، بل حاول أن يوسع ضفاف الموضوع لتتسع لما في الذوات الفردية من تعدد وتفرد وطبائع ونوازع ليست كلها وطنية بالضرورة، لكنه توجّس من سوء فهم يضع حواجز التمييز بين الوطني والانساني، ولا يرى مجالا حيويا للهوية الوطنية خارج الصدفة، من فرط ما تتعرض له هذه الهوية من تهديد خارجها.

هل حكم علينا بأن ننشغل الى ما لا نهاية بتقديم البراهين على أننا نحن نحن، وعلى أننا كائنات بشرية لا أشباح، وعلى أن لنا بلادا هي أرض لا بطاقة بريدية؟ ربما.. ربما، ولكن في وسع الفن أن يستبدل البرهان بالبديهة، وأن يتساءل: الى متى يظل الوطن في حاجة الى براهين جمالية، والى متى يظل الفن في حاجة الى براهين وطنية؟ قال فنان فرنسي «ان البراهين تضجر الحقيقة». ومن سوء حظنا التاريخي أن هذا القول قد لا يخصنا.

هل لنا ان نسأل ان كان اسماعيل شموط قد ضحى بامكانياته الفنية الهائلة من اجل البرهان؟ كلا، الأصح هو أن نقول انه كرّس طاقاته الفنية وحياته كلها ليؤرخ للتراجيديا الفلسطينية المستمرة، بلوحات تشهد على بطولات شعب حوّل اليومي الى اسطوري بصموده أمام مشروع الموت السياسي، وبشبقه الى حياة لا تعرّف ماهيّتها الا بالحرية، وتشهد على قوة الروح الابداعية المنتصرة على الزائل بالخالد، فصار اسماعيل أيقونة فنية ووطنية، صار الرسام هو اللوحة.

لا يأذن اسماعيل لأحد منا بأن ينساه، فهو المواظب على الصداقة مواظبته على العمل، يتفقدنا في كل مناسبة، ولا يرحم قلبه المفتوح كحديقة عامة من أعباء الحب. هو الصديق الدائم المبتسم المتواضع المحتشم كعشبة، كان صديقي الى حد أنه لم يسألني لماذا لم أعلق لوحة له على أحد جدراني المتنقلة، وكنت صديقه الى حد أنني لم أسأله لماذا لم أر كتابا لي في بيته، وكان لصداقتنا مكان ولادة بعيد: صوفيا، هناك التقينا منذ حوالي أربعين عاما، وتآخينا كجناحي طائر: أنا القادم من أرض ذاكرته، وهو القادم من مستقبل منفاي، وكلما التقينا تذكرنا صوفيا كأننا بلغاريان منفيان!

وفي بيروت، مع شفيق الحوت وسائر الأحبة، صرنا أسرة واحدة منكبة على قراءة أحوال الغيب والغد، سالمين من عدوى الوهم تارة، ومصابين بتداعياته تارة أخرى، وفي بيت اسماعيل، نسمع أزيز الرصاص القادم من حماسة الجامعة العربية، ونواصل الاستماع الى الموسيقى والشعر. وبينما يصمت زوجا الكناري العاشقان، تواصل أسماك الحوض الملونة سباحة النوم. أما سمسم السعدان الذي اكتفى من لغة البشر بالاشارات الخائفة، فقد لجأ الى روضة أطفال لتعليم الاشارات بعيدا عن لغة الرصاص.

افترقنا، دون أن اسأل اسماعيل: لماذا لا يرسم سمسم والسمك وزوجي الكناري؟ ودون ان اقول له: حافظ على الذاتي، ولو قليلا، من جشع الموضوع، ودون ان يقول لي: حافظ على الموضوع من جنوح الاستعارة!

اسماعيل شموط: يده هي التي ترى وقلبه هو الذي يرسم!

بني انصار

إدريس الملياني*

[إلى الأديب الطبيب عبد الحكيم معيوة]

بني انصار
هنالك في أعالي
قرية، منسية، عزلاء،
لم يعبأ بها أحدٌ
ولم يرها
سوى أبنائها شهدائها الأحياء
والقتلى
هي الأمُّ الولودُ
الحرة
الثكلى
لها الماضي البسيط غدٌ
هو الأمس
البطوليّ المجيدُ
على مدى الآلام لا يبلى
وقلب طاعن في الحبّ
لم يعرفه لا قيسٌ
ولا ليلى
وجرح دائم الإزهارِ
يروي في الجبالِ
وفي السفوحِ
مرارة الدّفلى
لها ما ليس يفنى
الذكرياتُ
الثرةُ
الأغلى
لديها من بريق المالِ
ينشر نورَها
قمرُ الليالي
وتُوري نارها الشمسُ
كموعظة المسيحِ
على جبلِ
شهيّ الخبزِ
والسمك الغريض
وخمرة قدسية فيحاء
من دمها الزكيّ
ومن دم الشهداء
كان ولم يزل سيلا
دم الأحرار
من أبنائها الأبرار فيها
ملحُها وخميرُها
والمهرُ والعرسُ
وآيتها التي تتلى
على الأكوانِ
من ثوار أنوالَ
إلى غرناطة الحمراء
والدم نفسهُ طُلاّ
بأيدي المارشال
الفارس المغوار،
جزّار الرقاب،
وباقر الحبلى
هنا وهناك سيانِ
دم «المورو» ولوركا واحدٌ
ودم الأمير
يشعّ أوسمةً
على صدر «الصغير»
يشبّ نيشاناً
دم الوطنين والشعبِ
على كتف الخنيرال
وإكليلا من العار
الذي ولّى
وأقبل هامةً
ظمأى تصيح بصوتها
الباكي الجريحِ
بني انْصار
بني انْصارِ!..

---

* شاعر وكاتب من المغرب

في دراسته عن طبيعة الكتابة الأدبيّة:

علي القاسمي يبحث عن «الحبّ والإبداع والجنون»

عبد الرحمن مجيد الربيعي*

■ جديد الكاتب والمعجمي العراقي الدكتور علي القاسمي الذي اختار المغرب مقاماً منذ ثلاثة عقود وأكثر، كتاب نقدي عنوانه «الحب والإبداع والجنون: دراسة في طبيعة الكتابة الأدبية»(1)

والنقد الأدبي أحد اشتغالات هذا الكاتب المتعدد الاهتمامات؛ فهو معجمي ومترجم وقصاص وناقد وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ويصفه الشاعر المصري المعروف فاروق شوشة الأمين العام لمجمع اللغة العربية في القاهرة، في مقال نشره بجريدة الأهرام المصرية عن كتابه النقدي «العراق في القلب»(2) بأنه «يمثل بين أقرانه ونظرائه حالة ثقافية خاصّة، فقد تلقّى تعليمه العالي في العراق (جامعة بغداد)، ولبنان (الجامعة الأمريكية في بيروت وجامعة بيروت العربية)، وبريطانيا (جامعة أكسفورد)، وفرنسا (السوربون)، والولايات المتحدة الأمريكية (جامعة تكساس). كما أن دراساته وتخصّصاته الأكاديمية شديدة التنوّع والتكامل، فقد حصل على بكالوريوس في الآداب، وليسانس في الحقوق، وماجستير في التربية، ودكتوراه الفلسفة في علم اللغة التطبيقي».

يكتب المؤلِّف مقدمة حول مفهومه للنقد ونظرية التواصل موزّعاً النظر إلى العمل الأدبي إلى ستة عناصر هي: المُرسل، المتلقّي، السياق، الرسالة، القناة، الشفرة. كما أنه يعَرّج في هذه المقدِّمة على مهمة النقد فيرى «أن وظيفة النقد في بلداننا التي ترتفع فيها نسبة الأمية الثقافية، ويقلّ فيها إقبال الناس على القراءة، هي ترغيب القارئ في اقتناء الكتاب الأصلي وقراءته، أو على الأقل، مساعدته على الإلمام بمُجمل مضمون الكتاب، وتذوّق مواطن الإبداع والجمال والفنّ والمعرفة فيه».

أما عن عنوان الكتاب فيقول عنه بأنه «صدى لمضامين قسم من تلك الكتب التي أضاءت بعض جوانب العلاقة بين الحبّ والأدب من جهة، وبين الإبداع الأدبي والجنون من جهة أخرى».

المقالة الأول في الكتاب تحت عنوان «الحب والجنون في حياة مي زيادة» وهي قراءة في كتاب «جنون امرأة: مي زيادة» الذي وضعه الكاتب والصحافي المصري خالد محمد غازي. وخلص إلى أن مي زيادة أُصيبت باكتئاب شديد لأنها أخفقت في الحبّ.

والمقالة الثانية مكرّسة للأديب والمفكّر المغربي الرائد عبد الكريم غلاب وعنوانها «الإبداع والالتزام في فكر عبد الكريم غلاب». وقد توقف عند حالات من الالتزام في أدبه وفكره مثل: الالتزام بقضية الوطن، الالتزام بقضايا الحياة لا الموت، الالتزام بحقوق الإنسان، الالتزام بقضايا الثقافة. وقد توصّل إلى خلاصة ذكر فيها «أن الأستاذ غلاب مفكّر عربي طلائعي ملتزم، والتزامه التزام إنسانيّ منفتح ناضج».

ويتحوّل في المقالة الثالثة من كتابه هذا إلى رواية «نوافذ النوافذ»؛ وعنوان المقالة هو «نافذة صغيرة على الواقعي والخيالي في رواية نوافذ النوافذ لجمال الغيطاني». هذه الرواية كما يذكرنا الناقد هي الدفتر الرابع من «دفاتر التدوين» (وهو العنوان الذي اختاره الغيطاني لمشروعه الروائي الطويل). ويضيف أنه صدر في أربعة دفاتر هي: خلسات الكرى، دنا فتدلّى، رشحات الحمراء، نوافذ النوافذ. وآخرها أكبرها حجماً. يرى القاسمي أن الغيطاني «ابتكر تقنية سردية جديدة يمكن تسميتها بـ«تقنية النافذة» إذ يطلّ السارد من نافذة من النوافذ على الأماكن والأشخاص والأحداث، وفي الوقت نفسه يطلّ القارئ من تلك النوافذ على فكر الروائي وثقافته ورؤاه وأحاسيسه وهواجسه».

ثم يتحول في مقالة لاحقة إلى إدوارد سعيد وعنوانها «شجاعة فكر لا تعرف الحدود لدى إدوارد سعيد». وقد ذكر أن مقالته هذه في الأصل كتبها بناء على دعوة وُجهت له من بلدة القنيطرة المغربية التي نظّمت مهرجاناً عنوانه «فلسطين رمز يتجدد»، وطُلب منه الحديث عن إدوارد سعيد ظناً من المنظمين ـ كما يذكر ـ بأنه كان على معرفة به لكونه مشرقياً. ولم يكن هكذا. واستعرض مواقف إدوارد سعيد الفكرية الإنسانية التي تتسم بشجاعة نادرة.

ثم يكتب مقالة عنوانها «حينما يرتقي الروائي قمة الانثروبولوجيا» قراءة في السيرة الذاتية «أية حياة هي؟» لعبد الرحمن مجيد الربيعي، وهو كتاب صادر عن دار الآداب اللبنانية.

بعد ذلك يتحول إلى رواية «الخفافيش» لمحمد عز الدين التازي، الروائي والجامعي المغربي. ويبحث في مقالته عن «العشق والكتابة» في هذه الرواية، ويصل إلى القول: «إن الخفافيش رواية فذّة من حيث قدرتها على استلهام الحقيقي والوهمي، والمرئي والمتخيّل، لبناء تشكيلات سردية أنيقة الأبهاء، حافلة بشخصيات لا تُنسى أبداً».

واختار من العراق كتاباً آخر في السيرة الذاتية هو «عراقي في باريس» للأديب العراقي صموئيل شمعون المقيم في لندن. وكانت مقالته عنه على هيئة سؤال: «الإبداع والجنون، أية علاقة؟».

واعتمد المؤلِّف على الترجمة الإنكليزية لهذا الكتاب التي قام بها مجموعة من أصدقاء صموئيل شمعون، حيث صدر بهذه اللغة قبل صدوره باللغة العربية التي كُتب بها أصلاً. ولم يجد فرصته في النشر بالعربية إلا مؤخراً، إذ نُشر في دار الجمل بألمانيا. وقراءة المؤلِّف لهذه السيرة قراءة عاشقة، ويرى أنها كُتبت بحسّ عالٍ من الفكاهة والدعابة، وتتجسد الفكاهة في صور متعددة.

بعد ذلك، يتوقف عند رواية مغربية جديدة هي «البعيدون» للروائي والمحامي بهاء الدين الطود التي صدرت طبعتها الأولى بمصر في سلسلة روايات الهلال، وبعد النجاح الذي قوبلت به والحفاوة النقدية توالت طبعاتها في المغرب فوصلت إلى ست طبعات. و«البعيدون» رواية تناقش العلاقة بين الشرق والغرب، العربي والأوروبي. وهو موضوع سبق لروائيين عرب أن تناولوه، لكن الطود أضاف جديداً في عمله الروائي الأخّاذ هذا. عنوان قراءة القاسمي لها هو «الاقتراب من الأغراب والابتعاد عن الأحباب». وقد أورد ملاحظة مهمة انتبه لها بعد قراءته لهذه الرواية هي أن الرواية المغربية أصبحت رواية «معرفية» وأن كتابتها لم تعد تقتصر على الأدباء المحترفين. نشير هنا إلى أن وزارة التربية والتعليم المصرية اختارت هذه الرواية لتوزيعها على المدارس المصرية نموذجاً للرواية المغربية. ورأى القاسمي أن هذا الاختيار كان صائباً.

ويتواصل المؤلف مع أعمال إبداعية أخرى تعرّف عليها بحكم علاقته اليومية مع الأدب والأدباء في هذا البلد. فيكتب عن رواية «كشف المحجوب» لفريد الأنصاري ويعنون مقاله بـ«كشف المحجوب في الرواية الصوفية العربية». كما يكتب عن رواية في الاتجاه الصوفي نفسه لعبد الإله بنعرفة هي «جبل قاف» التي تتناول سيرة القطب الصوفي ابن عربي، وعنوان مقالته «الجبال المعرفية في الروايات الصوفية».

ومن الرواية الصوفية إلى مقالة نظرية عنوانها «الشعر والتصوف: خصائص الخطاب الشعري الصوفي». وهي مقالة مهمة اعتمد فيها على ثلاثين مرجعاً ويخلص فيها إلى أن الخصائص الرئيسية للشعر الصوفي التي تميّزه عن الشعر العذري والشعر الرومانسي هي: قدسية المحبوب، وقصدية القصيدة، واللغة الإشارية، وغرابة المصطلح الصوفي والتمويه فيه.

وبعدها كتب مقالة عنوانها «عناق المشرق والمغرب في عودة جلجامش». و«عودة جلجامش» هو كتاب من تأليف الدبلوماسي المغربي عبد القادر الجموسي. ويتساءل عن سبب اختيار الجموسي لهذه الأسطورة السومرية، فيعلّل ذلك بأنه «تعبير عن وحدة الأمّة مغرباً ومشرقاً، وتصوير لتجاوب القلوب المغربية مع خفق الأفئدة المشرقية المكلومة». ويتوسع القاسمي في موضوعه ليقرأ ملحمة جلجامش التي أفاد منها الجموسي ليتوصلّ إلى استنتاج هو «أن عبد القادر الجموسي أبدع لنا نصاً حديثاً لملحمة قديمة... نصاً رشيقاً ينتفض بالحيوية والفاعلية».

وتحظى القاصة والشاعرة التونسية فوزية العلوي بمقالة من الكتاب عنوانها: «الإبداع في أسطورية السرد وشعرية القصة لدى فوزية العلوي». وقد تناول فيها مجموعة «الخضاب» القصصية للكاتبة حيث يذكر أنها «أديبة مقتدرة توفّرت لها جميع أدوات العمل القصصي وآليات الصنعة السردية».

ثم يُفرد مقالتين لشاعرتين شابتين مغربيتين: الأولى وداد بنموسى صاحبة المجموعة الشعرية «لي جذر في الهواء» وعنوان مقالته عنها «روح الشاعرة وريحها». ويرى أنها «تنتمي إلى حركة شعرية نسوية مغربية جديدة غير معلنة يؤطّرها عدد من الشواعر الواعدات اللواتي يتقاربن في العمر والثقافة والظروف الاجتماعية ويتماثلن في سعيهن إلى استعمال لغة جديدة وتحقيق غايات أدبية ووطنية منتظرة بحيث يشكّلن ظاهرة لافتة للنظر على المسرح الأدبي المغربي المعاصر».

والشاعرة الثانية هي إكرام عبدي صاحبة مجموعة «لن أقايض النوارس». ونشير هنا إلى أن هاتين الشاعرتين مقترنتان بأديبين معروفين. فوداد بنموسى هي قرينة الشاعر والإعلامي نجيب خداري وإكرام عبدي هي قرينة الناقد عبد الرحيم العلام.

وكما كان لمدينة القصر الكبير حضور واضح في قصائد وداد بنموسى نجد حضور أصيلة في قصائد إكرام عبدي.

فكل منهما، عندما غادرت مدينة مسقط الرأس، حملتها معها إلى العاصمة حيث تعمل وتقيم. يقول المؤلِّف: «وإكرام عبدي شاعرة مولعة بمطاردة الصور الفذة واصطيادها، كما كانت في طفولتها تطارد الفراشات الملوّنة في دروب أصيلة وشواطئها».

وفي مقالة لاحقة يكتب المؤلِّف موضوعاً عنوانه «صورة المدينة في الأدب العربي والآداب الغربية»، وقد وزّعه على أقسام هي: القرية والمدينة في التقاليد الأدبية، والمدينة في تقاليد الكتّاب العرب والغربيين، ثم قراءة قصة جون أبدايك، وهو شاعر ورسام وقصاص روائي وناقد أمريكي معروف. وقد كتب المؤلِّف عن قصته «المدينة» التي ترجمها في كتابه «مرافئ على الشاطئ الآخر»(3). ثم يتحول نص الكاتب إلى ما يشبه الشهادة الشخصية عندما يتحدث عن قصته «المدينة» التي ضمّتها مجموعته القصصية «دوائر الأحزان» (4)، ويقارن بينها وبين قصة «المدينة» لجون أبدايك.

وأخيراً يترجم المؤلّف مقالة للباحث الدكتور صالح جواد الطعمة العراقي الأصل الأمريكي الجنسية والإقامة حالياً، وعنوانها «الشعراء العراقيون في المنفى الغربي». وفيها يرى الدكتور الطعمة أنه «من الصعب أن نذكر رقماً موثوقاً به لعدد الشعراء العراقيين الذين يعيشون في المنفى». كما يرى «أن هذه ليست هي المرة الأولى في تاريخ العراق الحديث التي يبحث فيها الشعراء العراقيون عن منفى لاعتبارات سياسية»، مؤكداً على «الدور القيادي والريادي الذي اضطلع به الشعراء العراقيون تاريخياً سواء في العصر الحديث أو العصور السابقة». ويصف عدد الشعراء الذين غادروا العراق خلال العشرين أو الثلاثين سنة الماضية بأنه «عدد غير مسبوق». وفي ملحق لهذا الموضوع، هناك نصوص لقصائد لبعض شعراء المنفى العراقيين طافحة بالحنين وهم: عبد اللطيف أطيمش، أمل الجبوري، يحيى السماوي، سعدي يوسف، وعدنان الصائغ.

هذا الكتاب رحلة نقدية تحكّمت فيها ذائقة المؤلِّف الرفيعة وثقافته الواسعة العميقة في الاختيار والاستنتاج. وقد جاء في 256 صفحة من منشورات دار الثقافة للنشر والتوزيع في الدار البيضاء.

---

* روائي عراقي يقيم في تونس

(1) علي القاسمي، الحب والإبداع والجنون: دراسات في طبيعة الكتابة الأدبية (الدار البيضاء: دار الثقافة، 2006)

(2) علي القاسمي، العراق في القلب: دراسات في حضارة العراق (بيروت: المركز الثقافي العربي، 2004)

(3) علي القاسمي، مرافئ على الشاطئ الآخر: روائع القصص الأمريكية المعاصرة (بيروت: إفريقيا الشرق، 2003)

(4) علي القاسمي، دوائر الأحزان ـ قصص ـ (القاهرة: دار ميريت، 2005)